ظلُّ الاله الثاني (١)

ايها السادة والسيدات

ليست هذه زيارتي الاولى لمدينتكم العامرة لاني تشرفت وجئتها قبل الحرب بشهر لمثل هذا الاجتماع . وان لم يكن بينكم من يذكر الفتاة التي كانت يومذاك طفلة في عالم الفكر فانها هي ما زالت تذكر بارتياح ما لاقتهُ من انس اللطف وحسن الضيافة : وبعد اعوام ذاق فيها البشر ما ذاقوا من طعوم الاوجاع اراني سعيدة بالعودة ، واشكر لرئيس هذه الجمعية الهمام وحضرات اعضائها الافاضل جميعاً الدعوة التي مكنتني من المجيء لاجدد تذكاراتي عندكم واحييكم مرة اخرى

على ان في محيتي الواحدة عناصر شتى : فيها السرور بمرأى الرجل والمرأة متسابقين في اتيان المعروف . وفيها الثناء على نخوة القائمين بامر هذه الجمعية أحسنين كانوا او عاملين . وفيها الاغتباط بتمهد المصري والسوري متقاربين متآخيين في هذا النادي . ولكن فيها خصوصاً عنصراً فتياً يتسرب بارزاً في نبرات الخطيب وسطور الكاتب لانهُ يظل جائلاً في القلوب : هذا العنصر الذي تعلمون هو عنصر الامل ، عنصر الحياة ، المتولد من اليقظة المصرية الحديثة

خطوات واسعات خطت مصر في هذا العام ، لاسيما في شأن المرأة . خطوات ترقبها بشغف وكبرياء نفوسنا المرتوية من مياه النيل المقدس ، المستنشقة هواء ما فتئت تبعث بهِ آلهة الاهرام الى احفادها مصري القرن العشرين . وبهذا الامل الذي يستجلي غد مصر عظيماً خالداً كامسها — بهذا الامل السعيد ارفع صوتي هاتفة : لتحي مصر الحديثة :

ايها السادة والسيدات

على مقربة من الحياة السياسية والاجتماعية حياة اكثر منهما اهمية لانهما بها يتكيفان وهي الاصل الذي ترتسم عليهِ جميع اعمال العمران . الا انها تتناول الناس فرداً فرداً دون ان تشمل الاقوام دفعة واحدة وبلحظة واحدة كما تفعل الحماسة الوطنية والحميات القومية

(١) خطبة لحضرة الآنسة ماري زيادة القتها في جمعية الاتحاد والاحسان السورية بمدينة طنطا في ٢٩ فبراير ١٩٢٠

تلك هي الحياة الاقتصادية ، وقوامها المال الذي يجعل الحقائق الخيالية حقائق محسوسة ويملأ الفضاء بزخارف المدنية ومنافعها — وقد دعاهُ السيد المسيح للاله الثاني . وكما ان لله عز وعلا ضداً نسميهِ روح الظلام ، او الشيطان ، كذلك للاله الارضي ، الاله الثاني ، ظلٌّ يتهادى بين القصور والاكواخ على السواء ، ويهدد جميع الناس وهم ابداً منهُ هاربون ، ذاك هو شبح الحاجة ، شبح الفاقة

انهُ لشبح هائل نرى خيال قبضتهِ السوداء في صفحات التاريخ واليهِ ترجع اسباب الاضطرابات والقلاقل ، وكل ثورة شبَّت في بلد فتركت صروحهُ انقاضاً. وليست الفواجع العامة الكبرى باكثر هولاً من الفواجع الفردية الصغرى. فقد عذَّب هذا الشبح اكثر ارباب الفكر والعلم والفنون ، وظالما ادمى اجنحة النبوغ بمخالبهِ وأوتنها بكتائفهِ ، وجعل صاحبها يعيش ضيق اليد مضعضع الشأن ويقضي جوعاً وغماً. وان لم يهبط الفقر بالجميع الى هذه الدركة المدلهمة فان الخوف منهُ يظل مستبدّاً بالناس استبداداً ويحتل حياتهم احتلالاً لا جلاء لهُ يرجى . فذلك الوجه العابس هو وجه من يحاول التوفيق بين دخلهِ وبين مقامهِ الاجتماعي او راحة من يحب. وتلك الجبهة المنحنية المقطبة هي جبهة الشاب الذي يكدُّ منذ اعوام ليخطو الى الامام ولكن المال حاجتهُ ليرسم على باب الدهر اشارة الظفر. وتلك العيون التي تطوف فيها خيالات القلق والهواجس انما هي عيون من عرف حرّ ثروتهُ الفكرية والشعورية من جهة وعوزهُ الذليل الى الدرهم من جهة اخرى. وكم من عمل ممقوت وامر مستهجن ، بل كم من مكر وخيانة ودهاء قد يأتيها المرء مرغماً وما كان سببها غير الحاجة او تلافي الوقوع بين مخالب الفقر والفاقة

فاذا كانت هذه حال المتوسط ، والغني احياناً ، فماذا نقول في اولئك الذين لا يطالبون الا بحصتهم مما تنبتهُ الارض من غذاء وتدرهُ من شراب ؟ ماذا نقول في اولئك الذين اثقلتهم الحياة بحاجات الاحياء وبخلت عليهم بما يقوم بتلك الحاجات ويسد منها الفراغ ؟ ماذا نقول في عبيد الشقاء الذين لا يعلمون لماذا يحيون ولاي غاية يتألمون ؟

ما أطيب لألم ، ايها السادة والسيدات اذا كانت ، نتيجة مخصب ، احب يد الشدة ، سواء أكانت يد حال او يد انسان ، التي تلطمنا لترشدنا وترقينا ! انما في الجهاد والالم قيمة الحياة ، والدموع الراسبة في أعماق القلب تذيب الغرور

والكبرياء وتأتينا بالخبرة العجيبة التي تدنينا من جوهر الاشياء وتخرج منا الحكماء والانبياء . فللحياة فضل علينا في كل جهاد نحرجنا اليهِ ، وكل حرمان تشعرنا بهِ ، ما دامت العقبات والصعاب واسطة لاتساع المدارك وانماء الملكات. فما تجيء الكوارث وتروح الاّ ونحن كذلك البحري الذي كافح الروابع او كذلك الجندي الذي خاض معامع المنايا فخرج منها قويًّا ظافراً

بيد أن ازاء بركة الالم النافع والجهاد المثمر نوعاً آخر من الالم يقتل الذكاء ويكسر مفاصل الامل ويضع بين شفتي الحي طعم الاكفان والقبور . ذاك هو الالم العقيم التي لا نتيجة لهُ كألم المعدمين العاجزين الذين لا يعرفهم أحد ولا يحبهم في الدنيا مخلوق . حتى اذا ما تجمد ألمهم يأساً ، وتحجر حقداً ، والتهب كرهاً انفجر بين الامم حمماً وبراكين تدعى الاشتراكية المتطرفة والبلشفية والفوضوية والعدمية . فيهبُّ دعاتها منادين بالالغاء وما كانوا متأخين بغير التمرد والجهل القتال والرغبة في سحق من هو فوقهم طمعاً في مالهِ . فيقلبون الحكومات ، ويقلقون الامان ، ويلغون الانظمة ويسلبون المتلكات وينسفون طائفة ليظلموا طوائف . كل ذلك باسم المساواة

« ما هي النتيجة يا ترى ؟

يوم تندكُّ عروش الافراد وتقوم على انقاضها ابلية الامم ، يوم يتغلّب العامل على صاحب رأس المال فيحرجهُ الى ما يشاء وما فيهِ يرغب ، يوم تتمزق انظمة الامس لتسن انظمة الغد ، اذن هل تتحول الظمة الطبيعة ؟ كلا ! انك في الكون لا بد منها لحفظ موازنة الكون ، وان تغيرت منها الاسماء والاجناس : كبير وصغير ، تابع ومتبوع ، سائد ومسود ، ظالم ومظلوم ، مفترس وفريسة .. هذا نظام الطبيعة العنيد ! ومن بين هؤلاء المتمردين الثائرين ستتكون نواة تسود شيئاً فشيئاً فيمتد تحتها الذل والتعاسة من جديد ، ويثور قوم آخرون ، وتعود الفاجعة التاريخية مرة اخرى ! يقولون ان الطبيعة امٌ فيالها من ام عتية تلد ولداً تشقي اولاداً جاعلة حضنها الرحب ساحة لاشد المعارك وافظع الحروب !

ملايين الاعوام والوف الدهور مرت والطبيعة صماء لا تنين لصراخ الضعفاء وزفير المتوجعين ، ونبضات قلبها الكبير لا تضرب الاّ على وفق نبضات القلوب المنتصرة ، وكأن اصواتها الكثيرة تهتف للصاعد سلم الغلبة وتشجعهُ فيدوس

على اعناق المنحدرين متخذاً من جماجمهم مراقي يصل بها الى القمة المطلوبة . هذا هو ناموس تنازع البقاء وبقاء الاصلح : للقوي البقاء وللضعيف الفناء . ناموس جائرٌ الا انهُ قاهر واحكامهُ ثابتة لا تتغير . ولكن ، ألا سُكبتْ عليك البركات يا قلوباً سمت بكرمها فأدركت ان فوق نظام الظلم نظام الرحمة ! وأُسبغت عليك النعم ، يا ايدي الشفقة والاحسان ، لانك تكوّنين الحلقة الانسانية الذهبية المتعالية على جور الطبيعة طموحاً الى عظمة الالوهية !

عرفتم ذلك ، ايها القائمون بأمر هذه الجمعية المباركة ، فقمتم تساعدون بقوة المال وتساعدون بسحر المحبة . ان لرجال فطنا اسماً عاطراً غير اننا نفاخر باهتمامهم بالخير واغاثة الملهوف اكثر من مفاخرتنا بما لديهم من ذكاء ووجاهة . وانتنّ يا سيداتي نساء فطنا ، مشهورات عندنا بالجمال . غير ان عذوبة الحنو في المرأة اجمل من جمال الوجه وأبقى . وقيامها بالواجب نحو الآخرين أشرف من المطالبة بحقوقها . وحقكنّ ان تعملن الامرين معاً . طالبن بالعادل من تلك الحقوق فلا يبخل عليكن بها ، لان للرجل العريق في السيادة جميع صفات السيد من كرم شامل ، وعقل راجح ، وصدر رحب ، وعدل تام . ونجاح المرأة متوقف على مهارة الطلب وعلى كيفية التصرف في الحرية المعطاة لها قليلاً قليلاً

ولكن المطالبة بالحقوق وان حلالاً فهي دون اعمال البر قيمة ومقاماً . تلك انانية وهذه غيرية . تلك اخذ وهذه عطاء . والمعطي فوق الآخذ دواماً . تلك خصام وكفاح وهذه أجل واجمل مظهر للمفاداة الاخوية . ولئن كان تنازع البقاء واسطة لارتقاء الحيوان ، كما قال هكسلي ، فان المفاداة والتعاون سبيل الارتقاء للانسان . هاكم النيل مادّاً احدى ايادية البيضاء في مدينتكم ليروي الاراضي العطشى فبدهي ان تتشلوا به باسطين يد الكرم الاخوي في مجاهل التعاسة . وفي وسط ما يملأ العالم اليوم من دماء ودمار وخوف وضغائن في وسط الصراع القائم بين الشعوب والشعوب ، وبين الامم والحكومات وبين الدرجات الاجتماعية

[illegible] في وسط هذا [illegible]

جمعيتكم هذه نوراً من الانوار الظاهرة المتألقة في سماء الحب الانساني منيرة ما حولها من ظلمات الفاقة والاحتقاد والشقاء .

(يتبع)